(٣٨) صفات العالِم الربانيّ

(الصبر على طلب العلم)

د. راغب:

الصبر والمصابرة على طلب العلم هي من أهم الصفات بعد الإخلاص، فالإخلاص بدونه يضيع العالِم، قال الله تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥]

فهذا الإخلاص لا بد وأن يصحبه العمل، وهذا العمل لا بد أن يكون عملًا صالحًا به الجهد والصبر والتعب والبذل ليصدق الاختبار والنتيجة.

انا أنقل كلمة نقلها على غير العادة الإمام مسلم في صحيحه، لأن صحيح مسلم كله احاديث فعلى غير العادة أن يفعل ذلك الإمام مسلم، وهي كلمة يحيى بن أبي كثير وهو من التابعين، قال يحيى بن أبي كثير: (لا يستطاع العلم براحة الجسم)، وأكمل بعد ذلك حديثً لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

(لا يستطاع العلم براحة الجسم) وهذه قاعدة، أي لا تحاول فإن حاولت أن تأخذ العلم بسهولة وبدون تعب، فلا بد من الجهد ومن الصبر والتعب والسهر والمعاناة والسفر وكثير من الأمور، وفي حياة العلماء السابقين الذين برزوا ونبغوا كان هناك ما يسمى الرحلة، وهي أن يقوم العالِم برحلة بحثًا عن العلم.

جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قطع شهرًا ذهابًا وآخر إيابًا لأجل أن يسمع حديثًا واحدًا عن عبدالله بن أنيس رضي الله عنه، ولم يكن هذا الحديث قد وصل إلى جابر بن عبد الله فأراد أن يُعلِّي السند كما يقول علماء الحديث ليسمع مباشرة منه.

وكذلك أبو أيوب الأنصاري يقطع أكثر من شهر من المدينة المنورة إلى مصر إلى الفسطاط، ليقابل هناك أحد الصحابة يسمع منه حديثًا ثم يعود مرة ثانية.

والحقيقة أننا لا يمكن أبدًا أن نجد قصة عالم حقيقي بدون هذه المعاناة، فهو أمر طبيعي جدًا، سواء من العلماء القدامى أو المعاصرين المسلمين أو غير المسلمين، فإن كان عالمًا بحق فلا بد من المعاناة في حياته وكل حياته موكلة إلى هذه القضية الضخمة التي حملها وهي قضية العلم.

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهو حبر الأمة وإمام من أئمة العلماء الكبار، له قصة لطيفة للغاية وهي موجهة للشباب خاصة، عندما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رضي الل عنه لم يكن تجاوز الـ ١٤ سنة وهو يلعب مع شاب صغير من الأنصار صديق له، فقال بن عباس له: لقد مات رسول الله عليه الصلاة والسلام ويوشك هؤلاء الأشياخ من الصحابة أن يموتون فنحن علينا أن نذهب ونتعلم العلم على أيديهم، فقال الشاب الأنصاري: ويحك يا ابن عباس أتظن أن الناس يحتاجون إليك مع وجود هؤلاء الأشياخ العظماء.

فيقول رضي الله عنه: فتركته وتركني وذهبت للعلم، وكنت أعرف أن رجل عنده الحديث فآتيه وأجلس على بابه فتسفي علي الريح ما تسفي من التراب، إلى أن يخرج ليخبرني الحديث فيجدني نائمًا على الأرض، فيقول: يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الذي أتى بك؟ فيقول رضي الله عنه: أتيت أطلب منك وأسألك عن الحديث، فيقول له: لو طلبتني لأتيت إليك، فقال: أنت أحق بأن تؤتى.

ويقول عبد الله بن عباس رضي الله عنه عندما فتحت المدائن وكثرت الأموال: عندما فتحت المدائن أقبل الناس على الدنيا وأقبلت على عمر بن الخطاب.

د. صلاح:

عبد الله بن مسعود يقول: لي وحدي سبعين سورة أخذتها من فم النبي صلى الله عليه وسلم لم يشاركني فيها أحد.

فهو رضي الله عنه صبر صبرًا جميلًا حتى تعلم.

وكذلك يقول أبو هريرة: تبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملئ بطني، وهو أبو هريرة أكبر راوي في علوم السنن أكبر راوي للأحاديث.

وفي رواية في مسند الإمام أحمد بن حنبل أنه هو يقول:

أن أبا هريرة كان يقول: آلله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه،

فمر أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل،

ثم مر بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل ،

ثم مر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: (يا أبا هر).

قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (الحق) . ومضى فاتبعته، فدخل، فاستأذنت، فأذن لي، فدخل، فوجد لبنا في قدح، فقال: (من أين هذا اللبن) . قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: (أبا هر)، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي)، قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة، كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاء أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بد، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت،

قال: (يا أبا هر)، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (خذ فأعطهم)، قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إلي فتبسم، فقال: (أبا هر)، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (بقيت أنا وأنت)، قلت: صدقت يا رسول الله، قال: (اقعد فاشرب)، فقعدت فشربت، فقال: (اشرب)، فشربت، فما زال يقول: (اشرب) حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلكا، قال: (فأرني) . فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة.

الراوي: أبو هريرة -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٦٤٥٢

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

هذا هو أبو هريرة لأنه وضع في ذهنه قضية التعلم.

وكان بيت النبي ليس به خردلة أو لقمة من خبز، وأقول هذا الكلام لأن الكثير من طلاب العلم لا يأكل وجبتين في اليوم بل يأكل خمس وجبات، وتكون المائدة عليها عشر أصناف وملئ بطنه والبِطنة تُذهب الفِطنة.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه صبر من أجل العلم، حتى أن اتفق مع رجل من بني أمية بأن كل منهم يعمل نصف الوقت من الشهر، خصوصًا أنهم كانوا يسكنون بعيدًا في عوالي المدينة، فأحدهم يلزم رسول الله منذ أن يخرج من بيته إلى أن يرجع ليستمع إلى ما ينزل من آيات وما يقوله من أحاديث، ثم يلتقيان مساء فيخبران بعضهما بما سمعاه منه.

بهذا الحِرص أصبحوا أفذاذ العلماء وخيارهم.

وأحد العلماء عندما أخذ جائزة نوبل سألوه فيما يقوله لطلاب العلم، فقال: لن تتعلم حتى تتألم، فيجب أن تكون هذه العبارة بداخل كل منا، وتكون كلمة تستنهض الإنسان في لحظة الكسل، لأن طالب العلم يؤرقه طلب العلم.

يقول الزمخشري:

سَهَرِي لِتَنْقِيحِ العُلُومِ أَلَذُّ لي *** مِنْ وَصْلِ غَانِيةٍ وَطيبِ عِنَاقِ

وأذكر هذا البيت الذي كنت أكتبه في أول صفحة على بعض الكتب الصعبة وقت الدراسة مثل كتاب الأدب المقارن، يقول الشعر:

لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ المُنَى *** فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إِلاَّ لِصَابِرِ

ويقول آخر:

لَوْلا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ: *** ألجُودُ يُفْقِرُ وَالإقدامُ قَتَّالُ

ويقول آخر:

لا تحسِب المجدَ تَمراً أَنت آكِلُه *** لن تِبْلُغَ المجْدَ حتى تلعَقَ الصّبرا

وأذكر قصة لي مع العز بن عبد السلام، كنت في الهند لحضور أحد المؤتمرات ووجدت كتابًا أمام احد العلماء وكان (شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال للعز بن عبد السلام بتحقيق الطبّاع) فاستعرته سريعًا منه وكانت لدي رغبة شديدة بقراءته فطلبت احد الشباب ليبحث عنه ويشتريه لي فلم يجده فقلت له بأن يصوره لي، وبعد الانتهاء من المؤتمر صعدت إلى الطائرة وعزمت أن أنهيه قبل أن أصل إلى وجهتي، كنت ذاهبًا من نيودلهي إلى فيينا ومن فيينا ترانزيت إلى براغ في تشيكوسلوفاكيا، وبغم من أنني كنت احتاج إلى الراحة والنوم قليلا إلا أنني قبل هبوط الطائرة كنت قد أنهيت قراءة الكتاب! وعندما وصلت كان الإخوة يستقبلونني لحضور مؤتمر آخر وكان عليَّ حضوره، وإلى الآن مذاق هذا المؤتمر في حلقي وقلبي جميل، لأن الكتاب كان مُغذي جدًا وخصوصا في الإيمان والإحسان والعرفان بالرحمن شيء فوق العادة.

د. راغب:

ضربنا بعض الأمثلة من حياة الصحابة رضي الله عنهم، لكن بعض الناس تستصعب هذه الأمثلة بحجة أنهم جيل الصحابة وكانوا يعيشون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمعسكر الإيماني الذي كانوا يعيشون فيه يدفعهم إلى هذا الأمر.

لكن حتى لو تجولنا في مراحل التاريخ المختلفة سنجد هذا الأمر، لو رأينا مثلًا الإمام النووي رحمه الله، كان يقول عن نفسه أنه لم يمس كتفه الأرض أو الحصير عامين كاملين أثناء طلبه للعلم، فلم ينم فكان يذاكر ويدرس حتى يغلبه النعاس فيتكئ على كتبه وهو جالس حتى لا يأخذه نومٌ طويل، فينتبه بعد قليل فيستيقظ ويتابع المذاكرة فلا ينام إلا أن يغلبه النوم.

والشافعي كان يظل طوال الليل يبحث في المسائل العلمية.

والإمام البخاري كان غلامه يبيت معه فيقول كان ينام ويستيقظ في الليلة الواحدة ٣٠ مرة، يستيقظ عندما تأتيه فكرة يشعل شمعته فيكتبها، ثم يطفئ الشمعة وينام وهكذا حتى ثلاثين مرة في الليلة الواحدة ثم يستيقظ اليوم التالي للعمل نشيطًا.

والنووي رحمه الله لم يكن متفرغ للكتابة، كما قد يظن البعض بل كان يُدرِّس في مدرسة الحديث في دمشق ١١ درس يوميًّا، ١١ درس في الفقه واللغة والحديث وفي علماء الجرح والتعديل ومواد صعبة جدا، من أول الصباح إلى آخر المساء، ثم يعود إلى بيته ويبدأ بالتأليف ويكتب في البحوث.

د. صلاح:

الشيخ محمد نجيب المطيعي رأته عيناي في مسجد أبو بكر الصديق في جدة، كنت أذهب إليه أسبوعيًا أستمع إليه وأتعلم منه.

فيذكر حديثًا من الأحاديث، فأحد الشباب يقول له: أنت تُحدِّث أحاديث ضعيفة وليست صحيحة، فقال له: كم ساعة تقرأ في اليوم؟، قال: أقرأ ساعتين في اليوم، فقال: أُبَشِرُكَ إن شاء الله بعد ٢٠ سنة يمكن أن تُصبح عالِمًا.

ثم قال له: يا بني أنا الآن عندي ٦٥ سنة وأصبت بالسكر والضغط والقلب وبالكاد أُحَصِّل ١٢ ساعة قراء فقط! وعندما كُنتَ في سنك كنت أقرأ ١٨ ساعة فقط.

الشيخ محمد نجيب المطيعي هو من أكمل المجموع للنووي، لأن النووي مات ولم يكملها وظلت هذه الحقب الطويلة لا أحد يجرؤ أن يُكملها، لكن الشيخ بفضل الله وهو من الرواة لمدرسة الشافعية أخذها روايةً وليس فقط قراءةً، وكان قد حصل على إجازات في علوم الحديث والفقه فأكمل المجموعة. وأنت تقرأ المجموع الان لا تشعر أبدًا أنك انتقلت بين النووي وبين محمد نجيب المطيعي!

فهو استظهر واستشرف وعاش وتشبّع بمنهج الإمام النووي، وبالتالي أنتج لنا تكملة المجموع في صورة رائدة ورائعة جدًّا.

وهذه صور من صبر العلماء، وبغير صبرٍ يضيع كل شيء، والآمال العِراض تضيع مع النفوس الهزيلة.

وكما قال الشاعر:

عَلى قَدْرِ أهْلِ العَزْم تأتي العَزائِمُ *** وَتأتي علَى قَدْرِ الكِرامِ المَكارمُ

فإذا نوى الإنسان أن يكون عالِمًا فليصبر في الليل والنهار وليقرأ ويطالع ويكتب، ويقول الشاعر:

لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ المُنَى *** فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إلاَّ لِصَابِرِ